

أزمة الهوية وإشكالية الابتعاد عن الدين: بين مطرقة الأصالة وسندان العولمة - قراءة نفس-اجتماعية -

د.هنا بوحارة أ.لمين وادي
جامعة سيدي بلعباس جامعة عنابة - الجزائر

الملخص:

شكلت أزمة الهوية مع متغيرات العصر الحالي الاقتصادية والتقنية، العلمية والاجتماعية، إحدى أكبر المقاربات الفكرية، السوسيولوجية وحتى السيكلوجية التي أثارت جدلا ونقاشا يعكس إشكالية تطرح العلاقة بين المقاربات الفكرية لمفهوم الهوية وبين الإنسان العربي وإشكالية ابتعاد أفراد المجتمع الواحد على أهم مقوم من مقومات الأمة (الدين).

فواقعا اليوم يبين لنا بوضوح ما للعولمة والحداثة من أثر كبير لاستيراد سبلي مفرط لهوية ثقافية غربية طغت على غالبية المجتمعات العربية، فأوقعت أفرادها في مأزق يصطلح عليه بأزمة الهوية والتي لاحت أطيافها على أهم مقوماتها هو الدين والتجرد من القيم والمعايير الأخلاقية الإسلامية، ما أدى إلى تعظيم الإحساس بالاغتراب وخلق الفجوة بين ما هو ثابت متأصل وما هو معلوم مستورد.

وعليه وفي خضم ما تقدم حاولنا في إطار مقارنة نفس-اجتماعية معالجة أهم أسباب ومظاهر الوقوع في أزمة الهوية وإشكالية الابتعاد عن الدين في مجتمعاتنا العربية.

- الكلمات المفتاحية: الهوية - أزمة الهوية - الدين - الأصالة - العولمة

Abstract:

Recently with the world's economy, technology, society and sciences changes, the identity crisis created one of the largest intellectual approaches in sociology and psychology witch produced a large discussion and arguments that reflects the problematic of the relationship between the intellectual approach of identity crisis and the keeping away from one of the most important Muslim and Arab world factors (religion)

Our world today shows clearly how much the negative effect of globalization and the west cultural identity assimilation on the most Arabs societies, all by keeping away from religion and ethics of Islamic values, that increased of the Alienation feelings created a hole between the constant inherent and the globalized imported.

For that we tried by this paper to present a socio-psychological approach to the causes and appearances of falling in identity crisis and the problematic of keeping away from religion in Arabic societies

- Keywords: Identity, Identity Crisis, Originality, Globalization.

- مقدمة -

إن الحديث عن الهوية في الواقع ليس من قبيل الترف الفكري أو الفراغ الوقي الذي يقضى كيفما اتفق، بل أنه أصبح من الأساسيات التي ينبغي أن يتوفر عليه جهد النخبة الواعية المثقفة من أبناء الأمة. ذلك أن الأمم لا تحيا بلا هوية، إذ الهوية بالنسبة للأمة بمثابة البصمة التي تميزها عن غيرها وهي أيضا الثوابت التي تتجدد ولكنها لا تتغير، ولا يمكن لأمة تريد لنفسها البقاء والتميز أن تتخلى عن هويتها، فإذا حدث ذلك فعناه أن الأمة فقدت استقلالها وتميزها، وأصبحت بدون محتوى فكري أو رصيد حضاري، ومن ثم تتفكك أو اصر الولاء بين أفرادها وتتلشى شبكة العلاقات الاجتماعية فيها. وبذلك تكون الهوية هي تلك الوحدة من المشاعر الداخلية التي تمثل في الشعور بالاستمرارية والتميز والوحدة والديمومة، والهوية تأسيسا على ذلك هي وحدة من العناصر المادية والنفسية المتكاملة التي تجعل الشخص يتميز عما سواه ويشعر بتباينه ووحدته الذاتية. وبذلك تكون الهوية تلك الكينونة الاجتماعية والتي تبدى خارجيا بصورة مستقلة عن وعي الناس وإرادتهم، وتجري حركة هذه الكينونة على أساس الوحدة والانسجام والتكامل. وعليه فبنية الهوية تعبر عن وجدانية مشاعر الهوية أو الشعور الوجداني بها، كما أن الوعي بالهوية قد يولد شعورا وجدانيا وانفعاليا بها أي أن هذا الوعي قد يولد إحساسا إيجابيا بالانتماء إلى هذه الهوية والدفاع عنها وتمثلها وجدانيا وتعني بالتمثيل الوجداني عندما يتم

تغذية الوعي الموضوعي بالهوية لمشاعر المحبة والولاء والانجذاب والإيمان. فأبرز مقومات هوية أمتنا نجد العلم واللغة، السلالة والتاريخ والدين هذا الأخير الذي يتثل في الإسلام فهو المقوم الأول للشخصية الوطنية الجزائرية، إذ أن هذا المقوم يعود في تاريخه إلى أكثر من أربعة عشر قرناً من الزمان، دخل خلالها هذا المقوم إلى أعماق النفس الجزائرية، وسرى في الدم واللحم والعظم، وامتزج معها امتزاجاً كلياً، هذا الإسلام كان دائماً خلال هذا المسار التاريخي الطويل هو مظهر هذه الأمة ولباسها وهويتها التي تتظهر بها بين الأمم وتُعرف بها بينها، ولأجل الحفاظ على هذه الهوية ظل المجتمع الجزائري يقاوم خلال هذا المسار الطويل.

لذلك فإن الإسلام يعتبر عامل الوحدة الوطنية الأولى، إذ يملك من أسباب الجمع والتوثيق بين الأفراد الرصيد الأعظم، فتعاليمه كلها تدور حول التعاون والتآزر والتناصر والأخوة المتبادلة بين أفراد المجتمع، تلك القيم التي من شأنها أن تزيد في ارتباط الجزائريين بعضهم ببعض، وتدعم تناسلهم وتعاونهم على النهوض بوطنهم وحماية مقومات شخصيتهم. فالدين هو المصل الواقي الذي يقي المجتمع ويلاصق التشتت والانحيار، ويساهم في استمرار الشعور الجمعي بالوحدة بين أفراد المجتمع، استمراراً متصاعداً يقوى ويترسخ مع مر الأيام. وعليه فإن استمساك أفراد الأمة بهويتهم والتفاهم حول مقوماتها ورموزها وإجماعهم على الاعتزاز بها هي أمور من شأنها التأكيد على الترابط الوثيق فيما بينهم، وترسيخ مفهوم "نحن" في نفوسهم كتعبير جماعي عن وحدتهم كأبناء أمة واحدة في مواجهة مفهوم "هم" الذي يعبرون به عن كل من لا ينتمي إلى هويتهم وأمتهم.

مقابل هذا ومع متغيرات العصر الحالي الاقتصادية منها والتقنية، العلمية والاجتماعية، شكلت أزمة الهوية في ظل كل ما سبق إحدى أكبر المقاربات الفكرية، السوسيولوجية وحتى السيكلوجية التي أثارت جدلاً ونقاشاً يعكس إشكالية تطرح العلاقة بين المقاربات الفكرية لمفهوم الهوية وبين الإنسان العربي وإشكالية ابتعاد أفراد المجتمع الواحد على أهم مقوم من مقومات الأمة (الدين).

فواقعنا اليوم يبين لنا بوضوح ما للعولمة والحداثة من أثر كبير لاستيراد سبلي مفرط لهوية ثقافية غربية طغت على غالبية المجتمعات العربية ومنها المجتمع الجزائري، فأوقعت أفراداً في مأزق يصطلح عليه بأزمة الهوية والتي لاحت أطرافها على أهم مقوماتها هو الدين والتجرد من

القيم والمعايير الأخلاقية الإسلامية، ما أدى إلى تعظيم الإحساس بالاغتراب وخلق الفجوة بين ما هو ثابت متأصل وما هو معلوم مستورد.

وبذلك تمثل الهوية رابطة روحية ضميرية بين الفرد وأمتة بمقتضاها يسعى إلى إعلاء شأن هذه الأمة ورفع مكانتها بين الأمم، كما تحتم هذه الرابطة على الفرد أن يعيش مدركا لمقومات ذاتية أمتة التي هي في ذات الوقت عوامل تميزها إزاء غيرها من الأمم، وأن يسعى دوماً إلى الحفاظ على تلك المقومات في مواجهة أسباب التحلل والانحيار، وذلك إلى جانب اعتزاز الفرد برموز أمتة وإجلالها واحترامها والولاء لها. والحق أن الوعي بالهوية لدى أفراد أمة ما لا بد أن يكون مقترباً بسواد روح العصبية لديهم فيما يتصل بهويتهم وذاتيتهم ومقومات هذه الذاتية وتلك الهوية (أحمد محمد وهبان، ب. س، ص: 05).

فإن القرن العشرين الماضي لاحت قضايا الهوية في الأفق وانفتح حولها حديث واسع واهتمام جذاب في العالم وما يهددها من مخاطر الإلغاء والإقصاء أو الذوبان والانصهار، بل وحتى الاقتراض الثالث وهو الانبعاث والاستنهاض، ومما لا شك فيه أن الهوية والثقافة بخصوصياتهما ومقوماتهما هما المستهدف الأول في هذا الصراع والتدافع الحضاري القائم في ظل ما يعرف بالعولمة، ولعل أن الوظيفة السلبية لهذه الأخيرة (العولمة) هي محو الهويات والثقافات للأمم والشعوب ومسحها، أو على الأقل تهيمشها لصالح هوية واحدة وثقافة واحدة هي هوية وثقافة العولمة.

فالهويات الحضارية والخصوصيات الثقافية للشعوب والأمم هي التي تجعل من كل واحدة منها شعباً متفرداً بقيم ومبادئ يؤمن بها ويعتز بها، ويقيم عليها حياته، وأمة متفردة بمقومات يقوم عليها كيانها، وتؤمن بها سيادتها واستقلالها (خليل نوري مسير العاني، 2009، ص: 09).

حيث كان تفتح الوعي الذاتي في الحركات في العهد العثماني بداية الشعور القومي، ونشوء وعي قومي على أسس دينية لم تقطع جذوره الدينية إلا فيما بعد أي في القومية العلمانية عند (ساطع الحصري) وأصبح الشيخ (عبد الرحمن الكواكبي) رائد الاتجاه العربي حلقة الوصل ما بين السلفية والإصلاح الديني من جهة والفكر القومي من جهة أخرى، وتبلور وعي العرب في هذه المحلة وعياً قومياً بنشوء الحركات والأحزاب والأيديولوجيا القومية، وتحولت اللغة العربية من أداة اتصال بين الشعوب العربية (كما يقول عبد العزيز الدوري) إلى رابطة قومية اجتماعية

وسياسيا عززت الشعور القومي ومنحت الحركة القومية العاملة على استعادة الوحدة العربية والماضي التليد ركيزة ثقافية مهمة، وجعلت الدين من أركانها وليس من شروطها أو مستلزماتها. ولما كان الدين/ الإسلام أهم المقومات ويميز هويتنا العربية والإسلامية وكذا الجزائرية فإننا سننطلق ضمن هذا الإطار من مناقشة بعض المشكلات والانشغالات التي تولد أزمة هوية لدى الفرد ومن ثم المجتمع ثم الأمة ككل منطلقين من توضيح لأهم مظاهر وتداعيات أزمة الهوية في مجتمعاتنا العربية والجزائرية، لكن أولا علينا توضيح معنى الهوية.

وعليه وفي خضم ما تقدم حاولنا من خلال هذه الورقة البحثية وتحت إطار مقارنة نفس- اجتماعية معالجة أهم أسباب الوقوع في أزمة الهوية وإشكالية الابتعاد عن الدين في المجتمعات العربية والمجتمع الجزائري بخاصة، من خلال مناقشتنا للانشغالات الآتية:

- 1- ما هي مظاهر وتداعيات أزمة الهوية التي تطل مجتمعا العربي والجزائري خاصة؟
- 2- ما هي أسباب تشكل أزمة الهوية في ظل ابتعادها عن الأصالة وارتباطها بالعملة؟
- 3- إلى أي مدى الابتعاد عن الدين يسهم في تشكل أزمة الهوية لدى الفرد والمجتمع؟

- فما هي الهوية، وما الأشكال السلوكية الدالة عليها؟

يعد موضوع الهوية من المواضيع المثيرة للجدل، حيث يذهب عدد من الباحثين في هذا المجال إلى أن الهوية تخضع في تعريفها للعلم الذي يحقق فيها، وأن لكل علم تعريفه الخاص للهوية يختلف عن تعريفها في العلم الآخر، كعلم النفس وعلم الفلسفة والاجتماع والسياسة وعلم النفس الاجتماعي وعلم الكلام وغيرها من العلوم الإنسانية المختلفة.

وفي هذا السياق يعتقد (شريف يونس) أنه "في كل لحظة تاريخية معطاة وبصدد كل مسألة مطروحة للنزاع بين اتجاهات مختلفة يدعي كل منهم أنه هو المعبر عن الحقيقة بشأنها. توجد بقعة عمياء يعجز جميع الأطراف بالضرورة عن فحصها، أو الكلام عن حقيقتها، هي بالذات القيمة المشتركة التي يجري حولها النزاع. وفي حالة الهوية سيكون مفهوم الهوية ذاته هو هذه البقعة العمياء لأنه سيكون محل تقديس لا تساؤل فهو بالنسبة لكل الأطراف بديهي غير مختلف على أهميته ووضعه برغم اختلافهم على تعريفه ووصفه".

ففي علم النفس تعرف الهوية على أنها "كون الشيء نفسه أو مثيله من كل الوجوه، الاستمرار والثبات وعدم التغير".

وفي الفلسفة تعرف على أنها "حقيقة الشيء من حيث تميزه عن غيره، وتسمى أيضا وحدة الذات".

وفي علم الاجتماع كذلك لا يختلف مفهوم الهوية عن ما سبقته من العلوم، فالهوية عنده: "عملية تمييز الفرد لنفسه عن غيره، أي تحديد حالته الشخصية" (خليل نوري مسير العاني، مرجع سابق، ص ص: 40-42).

وفي علم النفس الاجتماعي يعرفها (ايركسون) وهو محلل نفسي "أن الهوية تولد من خلال التفاعل بين الميكانيزمات السيكلوجية والعوامل الاجتماعية والإحساس بالهوية ينتج من الميل اللاشعوري للفرد بحيث يكون امتدادا لتجاربه الذاتية، كما ينتج من البحث عن الإحساس بالتكامل والوحدة والانتماء من خلال تنوع التشابه بنمط معين في الطفولة" (بن عيسى محمد المهدي، بوسحلة إيناس، 2008، ص: 523).

كما تعرف الهوية أيضا على أنها "الحقيقة المطلقة المشتملة على الحقائق اشتمال النواة على الشجرة في الغيب، أي تلك الصفة والثابتة والذات التي لا تتبدل ولا تتأثر ولا تسمح لغيرها من الهويات أن تصبح مكانها أو تكون نقيضا لها، فالهوية تبقى قائمة ما دامت الذات قائمة وعلى قيد الحياة، وهذه الميزات هي التي تميز الأمم عن بعضها البعض والتي تعبر عن شخصيتها وحضارتها ووجودها (زغو محمد، ب. س، ص: 94). وبذلك فالهوية تعبر عن ذات الفرد وتحدد كيانه وثقافته ومعتقداته.

ولما كان استهدافنا موقع الدين في الهوية وكيف أن الدين كمقوم من مقومات الأمة يساهم في تشكل الهوية والابتعاد عنه يؤدي إلى إحداث أزمة فيها، فإننا بداية سنتطرق إلى مفهوم الهوية الثقافية التي تتضمن بدورها الدين أهم عنصر بها إضافة إلى اللغة.

- ماهية الهوية الثقافية:

يقصد بالهوية الثقافية تلك المبادئ الأصلية السامية والذاتية النابعة من الأفراد أو الشعوب، وتلك ركائز الإنسان التي تمثل كيانه الشخصي، الروحي، والمادي بتفاعل صورتها هذا الكيان لإثبات هوية أو شخصية الفرد أو المجتمع أو الشعوب، بحيث يحس ويشعر كل فرد بانتمائه الأصلي لمجتمع ما، يخصصه ويميزه عن باقي المجتمعات الأخرى.

والهوية الثقافية تمثل كل الجوانب الحياتية الاقتصادية والاجتماعية والسياسية والحضارية والمستقبلية لأعضاء الجماعة الموحدة التي ينتمي إليها الأفراد بالحس والشعور الانتمائي لها.

وأيضاً هي ذاتية الإنسان ونقاءه وجمالياته وقيمه، بحيث تعتبر الثقافة هي المحرك لأي حضارة أو أمة في توجيهها وضبطها، أي هي من التي تحكم حركة الإبداع والإنتاج المعرفي (المرجع السابق، ص: 94).

وبذلك تشتمل الهوية الثقافية على كل متكامل يميز ذاتية مجتمع عن آخر من لغة دين وعادات وتقاليد وتراث وتاريخ متميز ومتفرد.

ولعل أن مدى تماسك كل العناصر السابقة مع بعضها البعض حتماً سيؤدي إلى إحداث نو من التناقص المجتمعي لأن هذه العناصر بمثابة بيانات عامة عن مجتمع من المجتمعات، واختلال عنصرها يؤدي إلى إحداث خلل به الهوية أو ظهور أزمة هوية، ولعل أن التغيرات التي يعيشها عالمنا اليوم من تغيرات تكنولوجية، سياسية، اجتماعية وثقافية لاحق في الأفق وأثرت بشكل واضح على ثوابت أمتنا الإسلامية مما أدى إلى زعزعتها في أحيان كثيرة والركود في أزمة هوية، فيا ترى ما مظاهر هذه الأزمة التي أنهكت مجتمعاتنا؟

إن الراصد غير المتعمق لما يجري في الساحة الثقافية والاجتماعية العربية الراهنة يصطدم بوجود وجهات نظر متباينة كثيرة حول مسألة الهوية، الأمر الذي يجعله يخال أنه في مواجهة هويات متعددة تشكل كل واحدة منها فضاء قائماً بذاته، لا رابط بينه وبين الفضاءات الأخرى، فهل يدفعنا ذلك إلى الاستنتاج بأننا نعاني أزمة هوية في الوطن العربي هي السبب في تدهور الحالة التي وصلنا إليها، أم أن فشل العرب في مواجهة التحديات الحقيقية الداخلية والخارجية الراهنة هو الذي أفضى إلى تذرر المجتمع العربي على النحو الذي يبدو فيه وكأنه "مجتمعات" ذات هويات مختلفة، وليس مجتمعات تشكل الهوية لمتته.

ثم إن التعددية الثقافية واقعة أساسية في الوطن العربي لا يجب تجاهلها ولا القفز فوقها بل بالعكس يجب توظيفها بمنتهى الوعي والحكمة في إثراء الثقافة القومية وتطويرها وتوسيع مجالها (حامد خليل، ص: 05).

إضافة إلى ظهور طبقة من المفكرين (تطلق على اسمها المثقفين) المستغربين، فمثلا في مصر راحت تطفو على سطح الحياة الثقافية المصرية وفسح المجال أمامها لبث أفكارها من خلال مختلف وسائل الإعلام الحكومية ومن بينها الوسائل الإعلامية الحكومية حال القنوات التلفزيونية العامة والصحف القومية، وتدور هذه الطبقة حول العلمانية واستبعاد الدين كأساس لبناء المجتمع في شتى قطاعاته (السياسية، الاجتماعية، الاقتصادية، والثقافية.. الخ). بل وما برحت تشكك في الثابت المعروفة من الدين بالضرورة حال الحجاب وفكرة عالمية الإسلام، كما ذهب فريق من هؤلاء القوم إلى حد الدعوة إلى استبعاد السنة كمصدر أصيل للتشريع والاكتفاء بالقرآن في هذا الصدد، ولا يخفى بطبيعة الحال ما يمثله فكر هذه الطبقة من خطر داهم على أبرز مقومات هويتنا ألا وهو الدين.

من أبرز المظاهر أيضا التي ابتاعت الهوية هي ظاهرة قيام بعض القطاعات (من حكومية وخاصة) باستبعاد الموظفين المحجبات (أو اللاتي يتجهن إلى الحجاب) من العمل، ويرتبط بهذه الظاهرة انتشار الملابس الغربية في الأوساط النسائية المصرية، ونظر بعض الفئات إلى اللاتي يرتدين الحجاب نظرة استعلائية باعتبارهن حسب التعبيرات الدارجة (بلدي وبيئة)، وفي ذلكم أيضا اعتداء -دونما شك- على وضع الدين كمقوم رئيسي للهوية المصرية (مصر بكلمة عربي إسلامي كنموذج).

ظهر صنف جديد من القنوات التلفزيونية من فضائية وأرضية يعرف بقنوات الفيديو كليب يقدر عددها بالعشرات، وهي قنوات لا دور لها ولا رسالة إلا التسابق في تقديم كل أنماط الابتذال والعري مجسدة في نوع من الأغاني الخليعة تعتمد في المقام الأول على كل حركات الجسد والإيماءات الخادشة للحياء، دون أدنى اعتبار لكونها موجهة لمجتمع إسلامي يدعو دينه إلى الفضيلة والاحتشام والستر، إضافة إلى برامج تلفزيون الواقع المبتذلة والمختلطة (ذكور وإناث).

تباهي الكثيرين داخل البلاد (وكذا البلاد العربية) كنموذج بإمامهم باللغات الأجنبية (لا سيما الفرنسية) حيث يذهب بهم حب التفاخر والمظهرية إلى استخدام ألفاظ أجنبية بصورة متكررة في أحاديثهم العادية مع أبناء مجتمعهم معتبرين أن النطق بهذه الألفاظ إنما هو دليل التمدن والتحضر والرقى، وفي ذلك الاتجاه الغريب إلى الاحتفال على نطاق لا يستهان به بأعياد غربية لا علاقة لمجتمعاتنا بها من الأصل.

يضاف إلى ذلك كل ما تقدم صورة أخرى لأزمة الهوية نجمت عن استفحال حدة التفاوت الطبقي في ظل العولمة (حيث اتجه مصر والعديد من الدول العربية الأخرى) تحت وطأة الضغوط الأمريكية إلى الأخذ بنظام اقتصاد السوق وهي الظاهرة المعروفة بالخصخصة (أحمد محمد وهبان، مرجع سابق، ص ص: 11-15).

ولعل أن بروز هذه المظاهر المميزة لأزمة الهوية في بلادنا العربية وراءه أسباب لا سبب واحد، ويمكننا فيما يلي أن نستعرض أهم أسباب تشكل أزمة الهوية في ظل ابتعادها عن الأصالة وارتباطها بالعولمة:

إن الحضارة الإسلامية قامت على القاسم المشترك بين حضارات العالم، فقبلت الآخر وتفاعلت معه أخذاً وعطاءً، بل إن حضارة الإسلام تعاملت مع الاختلاف بين البشر باعتباره من سنن الكون لذا دعا الخطاب القرآني إلى اعتبار الاختلاف في الجنس والدين واللغة من عوامل التعارف بين البشر، اتساقاً مع نفس المبادئ، إن الإسلام يوحد بين البشر جميعاً رجالاً ونساءً في قضايا محددة: أصل الخلق والنشأة والكرامة الإنسانية والحقوق الإنسانية العامة ووحدانية الإله وحرية الاختيار وعدم الإكراه، ووحدانية القيم والمثل الإنسانية العليا (محمد عبدو، نبيل أبو صعب، ص: 14).

فالأصالة هي العودة للأصل، إلى المنابع ونحن كمسلمين لا نستطيع أن نبني إلا على أساسنا الأصيل، ولا بد أن نعود إلى القاعدة الإسلامية الأساسية التي بنى عليها هذا المجتمع منذ خمسة عشر قرناً فإذا وضعناها في مكان محكم والاحتكام دخلنا مرحلة المعاصرة على ضوء كاشف ذلك أننا لا نقر تلك الكلمات المسمومة والحادثة التي تقول بأننا يجب أن نكون معاصرين أي نسائر العصر، أو قولهم أن يعيش الإنسان عصره، نعم يعيش المسلم عصره على قاعدته الأساسية ولا يضحى بالضوابط والقيم والحدود التي رسمها له دينه والتي قام عليها المجتمع الإسلامي من أول

يوم بنيت الحضارة الإسلامية على أساسه، لا يضحى بذلك أبداً في سبيل الجري وراء سراب خادع اسمه المعاصرة أو الحداثة أو التقدم.

إن للتقدم في الإسلام مفهوماً جامعاً يجمع بين المادي والمعنوي، إن للمسلمين قاعدة أساسية هي جوهر الأصالة تلك هي (ربانية الوجهة في بناء الإنسان والأسرة والجماعة والمجتمع والحضارة وتلك هي قصة الحضارة المعاصرة والمجتمع الغربي اليوم بشهادة كبار كتّابه (أنور الجندي، 1987، ص: 04-05).

فأمام ما يقال عن الأصالة والحفاظ على الهوية والتراث العربي والإسلامي هناك رياح قوية تواجه هذا الثبات والتوازن الذاتي القومي، هي رياح العالمية والعولمة، رياح المعاصرة المهددة والمزعزعة، فما هي العولمة؟

ترتبط العولمة في أذهان الكثير من الناس بالتقدم والرقى والانفتاح الاقتصادي، ومع أن مفهوم العولمة لا يقتصر على الجانب الاقتصادي بل يشمل الجوانب الاجتماعية والبيئية والثقافية والسياسية إلا أن الجانب الاقتصادي هو أبرز مظاهر العولمة (محمد عبدو، نبيل أو صعب، مرجع سابق، ص: 04).

ففي النصف الأخير من القرن المنصرم شهد العالم تطوراً سريعاً في ميدان تكنولوجيا الاتصال وتدفقت تكنولوجيا صادرات الاتصال العربية عامة والأمريكية خاصة إلى دول العالم الثالث، ولم تقتصر هذه الصادرات على الأجهزة فحسب بل شملت المضامين والخبرات ثم ظهر نموذج الهيمنة الثقافية - الاتصالية وانتشرت أكثر الكتابات حول الهيمنة الثقافية في هذه الفترة التي شهدت التوسع الاقتصادي الكبير للشركات متعددة الجنسيات وكانت أمريكا المحصن الخصب له الكتابات حيث تم الربط بين التوسع الاقتصادي للرأسمالية الأمريكية والتصدير واسع النطاق للمجتمعات الثقافية وتكنولوجيا الاتصال الأمريكية.

وأثرت تلك العولمة على كافة نواحي الحياة للعالم كله الاقتصادية والسياسية والفكرية والثقافية واللغوية حتى الدينية منها (وهو مصب حديثنا) (أبوبكر رفيق، 2007، ص: 01-02).

* والعولمة حسب الفيلسوف الفرنسي (روجيه جارودي) هي "نظام يمكن الأقوياء من فرض الديكتاتوريات اللاإنسانية التي تسمح باقتراس المستضعفين بذريعة التبادل الحر وحرية السوق"

* يقول (جيمس روزانو) أحد علماء السياسة الأمريكيين عن العولمة: "أنها العلاقة بين مستويات متعددة لتحليل الاقتصاد والسياسة والثقافة والايديولوجيا، وتشمل: إعادة الإنتاج وتداخل الصناعات عبر الحدود وانتشار أسواق التمويل، وتمثل السلع المستهلكة لمختلف الدول نتيجة الصراع بين المجموعات المهاجرة والمجموعات المقيمة".

* العولمة هي العملية التي بمقتضاها إلغاء الحواجز بين الدول والشعوب، والتي تنتقل فيها المجتمعات من حالة الفرقة والتجزئة إلى حالة الاقتراب والتوحد ومن حالة الصراع إلى حالة التوافق، ومن حالة التباين والتميز إلى حالة التجانس والتماثل، وهنا يتشكل وعي عالمي وقيم موحدة تقوم على مواثيق إنسانية عامة.

* العولمة منظومة من المبادئ السياسية والاقتصادية، ومن المفاهيم الاجتماعية والثقافية ومن الأنظمة الإعلامية والمعلوماتية، ومن أنماط السلوك ومناهج الحياة، يراد بها إكراه العالم كله على الاندماج فيها وتبنيها، والعمل بها والعيش في إطارها (صالح حسين الرقب، 2008، ص: 04-05).

فبقدر ما للعولمة من تأثيرات ايجابية وفعالة على مجتمعاتنا العربية إلا أنها من جهة أخرى لها تأثيرات سلبية على الهوية الثقافية لمجتمعاتنا بشكل خاص، ولعل من أخطر أهداف العولمة ما يعرف بالعولمة الثقافية في تتجاوز الحدود التي أقامتها الشعوب لتحمي كيان وجودها، وماله من خصائص تاريخية وقومية وسياسية ودينية، ولتحمي ثرواتها الطبيعية والبشرية وتراثها الفكري الثقافي حتى تضمن لنفسها البقاء والاستمرار والقدرة على التنمية ومن ثم الحصول على دور مؤثر في المجتمع الدولي. فالعولمة الثقافية تقوم على تسييد الثقافة الرأسمالية لتصبح الثقافة العليا، كما أنها ترسم حدوداً أخرى مختلفة عن الحدود الوطنية مستخدمة في ذلك شبكات الهيمنة العالمية على الاقتصاد والأذواق والثقافة.

إن العولمة لا تكفي بتسييد ثقافة ما بل تبقى من حيث المبدأ وذلك لأن الثقافة التي يجري تسييدها تعبر عن عداً شديداً لأي صورة من صور التميز، إن الثقافة الغربية تريد من العالم أن

يعتمد المعايير المادية النفعية العربية كأساس لتطوره وقيمة اجتماعية وأخلاقية (محمد عبدو، نبيل أبو صعب، مرجع سابق، ص ص: 27).

ومن آثار عولمة الثقافة انتشار نوعية مميزة من الثقافة المادية والمعنوية الأمريكية، حيث سيطرت الثقافة الأمريكية الشعبية على أذواق البشر فأصبحت موسيقى وغناء (مايكل جاكسون)، وتلفزيون رامبو، وسينما دالاس هي الآليات والنماذج السائدة في مختلف أنحاء العالم وأصبحت اللغة الانجليزية ذات اللكنة الأمريكية هي اللغة السائدة. من آثارها أيضا طمس الهوية الثقافية للأمة الإسلامية انتشار الأزياء والمنتجات الأمريكية في كثير من الدول الإسلامية، لأن هذه السلع تحمل في طياتها ثقافة مغيرة تستحق ثقافات الأمم لها وظهور اللغة الانجليزية على واجهات المحلات والشركات، وعلى اللعب والهدايا وعلى مس الأطفال والشباب (المرجع السابق نفسه، ص: 31).

هذا من جهة ومن جهة أخرى يتبادر إلى أذهاننا تساؤل مهم وهو إلى أي مدى الابتعاد على الدين يسهم في تشكل أزمة هوية لدى الفرد والمجتمع؟

إذ على المستوى التاريخي تعد العولمة استعمارا ثقافيا جديدا، لأنها تهدف إلى إحداث خلل في الهويات الثقافية للشعوب، بنشر وهيمنة العولمة الثقافية الأحادية القطب بهدف الاستيلاء ونهب إمكانات وحضارة الشعوب خاصة الفقيرة، وبالتالي فهي امتداد للاستعمار التقليدي الثقافي القديم، حيث كان الغزاة سابقا يسلبون مقومات الهوية كاللغة والدين من أصحابها بطمس الشخصية والهوية الثقافية لإخضاع المستعمرات. فالهدف الحقيقي من العولمة الثقافية هو إبقاء التبعية بإبقاء أهم الشعوب وخاصة منها المتدينة بالإسلام في درجة عالية من التبعية (زغو محمد، مرجع سابق، ص: 97).

وغالبا ما تستهدف العولمة ديانة وعقائد المجتمعات، ولعل الميدان الخصب للعولمة في المساس بحرية المعتقد والدين هو الحرب الاستدمارية ضد معتنقي الشريعة الإسلامية، أو الحروب القائمة ضد الإسلام سواء عسكرية أو ثقافية أو إعلامية، ومن أدلة ذلك وجود مصطلحات وعبارات تبين ذلك، ومنها مصطلح (العولمة) في حد ذاته، لأنه وضع إنساني ويبقى النقيض لخاصية الشريعة الإسلامية المتمثلة في عالميتها (عالمية الإسلام) هذا البعد العولمي الوضعي للدين والعقيدة يمس بالوجه الثقافي الاجتماعي وحتى السياسي للشعوب بوجود دول تدين الإسلام

الذي هو ثابتة ومبدأ أساسي في الدولة، وهناك من الدول تأخذ بالشريعة الإسلامية كمصدر رسمي للدستور والقوانين الأخرى، وهذا ما يتنافى وقوانين وأهداف العولمة الوضعية التي تهدف إلى مسح الشعوب من خصوصية الدين، وكل أصبح يطلق عليه في حياة العولمة بأنه "رجعي" ومتخلف.

كما أن هناك تعاط تسير عليه بعض الدول بين الدين والقوانين الدولية التي تعد منهاج العولمة بأنه غير جدي وغير منطقي، فكيف للدول أن تكون عضوة في هيئة الأمم المتحدة في إطار نصوص القانون الدولي العام وفي إعلانات ومواثيق حقوق الإنسان، وهي الدول الضعيفة المتشبثة بالدين ودساتيرها تنص على أن الشريعة أو الدين مصدر لقانونها، في حين أنها موقعة على الإعلان العالمي لحقوق الإنسان الذي هو من أساليب العولمة في تخطيطها للحدود ومنها الحدود القانونية والثقافية، والمعبر عن خصوصية خاصة في العولمة تسير في غالبا بالقوة العسكرية تطمس خصوصية وهوية وشخصية أخرى فيمن تراه من غيرك تلك الخصوصية الخاصة، في حين أن الإعلان العالمي لحقوق الإنسان يعبر عن ثقافة الطرف الذي وضع الإعلان، وهو ما يشكل الدول الغربية الكبرى، في حين أنه ليس تعبير عن ثقافة الدول التي كانت في ظل الاستعمار وإن صادقت عليه بحرية بعد استقلالها (نفس المرجع السابق، ص: 99).

حيث يذهب (محمد أركون) في كتابه (الإنسانية والإسلام) إلى المقارنة بين الإصلاحية الأولى المجهضة (القرن التاسع والعاشر) واللحظة الراهنة التي فشل فيها المشروع الليبرالي، معتبرا أن السبب الأساسي لإخفاق ديناميكية التحديث العربية يرجع إلى حاجز الدفاع عن الهوية الذي أنتجته إيديولوجيا الكفاح ضد الاستعمار والهيمنة الغربية، فهذه الإيديولوجيا وإن كانت مشروعة سياسيا فإنها شكلت عائقا جوهريا دون تحديث المجتمعات الإسلامية بتحويلها الحداثة إلى خصم حضاري تتعين محاربه ثقافيا وفكريا مثلما تمت محاربة المستعمر عسكريا وسياسيا (السيد ولد أباه، 2010، ص: 56).

إذ ينبغي على المسلمين اليوم أن يتعرفوا على خطر العولمة كما يجب عليهم أن يكونوا على بصيرة من مزايا الإسلام وصلاحيته للعالمية وتطابقه للفكرة الإنسانية، كما ينبغي أن لا يكونوا غافلين عن الوضع الراهن من القضايا التي تهدد وجود الشعوب المسلمة والأمة الإسلامية كأنهم لم يسمعوا بشيء من هذا ولم يلقوا لها بالا. كما يجب على المخلصين من أبناء هذه الأمة أن يبذلوا

جهودهم من أجل التبصير بالمخاطر والإبداع في بث القيم الراشدة بالأسلوب المناسب عبر الآليات الجديدة والبحث عن البديل الناجح المثمر من الإسلام وأن يتخذوا اللوازم لعالميته بدل العولمة الخبيثة، فالإسلام هو الدين الوحيد الراشح الذي في وسعه أن يقدم الحل الناجح، وفي وسعه أن يقدم للبشرية كلها ما فيه النجاح والفلاح لهم، وما فيه الخير والسعادة والطمأنينة (أبو بكر رفيق، مرجع سابق، ص:13).

- استنتاج عام:

يمكننا القول مما سبق أن الثقافات الوافدة تشكل خطراً على الهوية العربية والإسلامية وبخاصة في ظل التحصينات الداخلية والانفتاح بلا وعي على العالم الغربي وخصوصاً الجانب الإعلامي، إنها تستهدف القضاء النهائي على التراث الثقافي والمكون الحضاري للأمة الإسلامية والعربية. وبذلك تساهم في تشكل أزمة هوية لدى الفرد ومن ثم المجتمع، فالعالم كله يواجه خطر الثقافات الأخرى وتذويب الهويات تحت شعارات طوباوية زائفة مثل (المواطنة العالمية) و(القرية الكونية) و(القيم الكونية)..¹ نأخ من تلك المصطلحات التي لا واقع ولا أمل لها. وانطلاقاً من ذلك يظل الدين أهم المقومات التي تميز كل أمة على أخرى وديننا الإسلام هو الذي يميز أمتنا الإسلامية، فإنه دون أدنى شك الابتعاد عنه والتمسك بغير قيم وبغير ثقافة وبغير مبادئ كله يشكل للفرد الإحساس بالاغتراب وأزمة هوية عن ذاتيته الأصيلة.

- قائمة المراجع:

- 1- أحمد محمد وهبان، الهوية العربية في ظل العولمة، سلسلة إصدارات الجمعية السعودية للعلوم السياسية، الجمعية السعودية للعلوم السياسية، كلية الملك سعود.
- 2- أبو بكر رفيق، مخاطر العولمة على الهوية الثقافية، مجلة دراسات، الجامعة الإسلامية العالمية، المجلد (4)، ديسمبر 2007.
- 3- أنور الجندي، الأصالة والمعاصرة، دار الصحوة للنشر والتوزيع، ط(1)، 1987، القاهرة.

- 4- السيد ولد أباه، الدين والهوية: إشكالات الصراع والحوار والسلطة، جداول للنشر والتوزيع، ط (1)، 2010، الكويت.
- 5- بن عيسى المهدي، بوسخة إيناس، تجاوز الإعاقة بين آليات الدمج وتشكيل الهوية، مجلة العلوم الإنسانية والاجتماعية، عدد خاص للملتقى الدولي الأول حول الهوية والمجالات الاجتماعية في ظل التحولات السوسيوثقافية في المجتمع الجزائري.
- 6- صالح حسين الرقب، العولمة الثقافية وآثارها وأساليب مواجهتها، مقال نشر في كتاب مؤتمر (العولمة وانعكاساتها على العالم الإسلامي في المجالين الثقافي والاقتصادي)، 2008، الأردن.
- 7- صالح الرقب، العولمة، الجامعة الإسلامية، ط (1)، 2003.
- 8- زهير توفيق، خطابات الهوية في عصر النهضة، مجلة الغد، نشر بتاريخ 2008/03/01.
- 9- زغو محمد، أثر العولمة على الهوية الثقافية للأفراد والشعوب، مجلة الأكاديمية للدراسات الاجتماعية والإنسانية.
- 10- خليل نوري مسير العاني، الهوية الإسلامية في زمن العولمة الثقافية، سلسلة الدراسات الإسلامية المعاصرة، مركز البحوث والدراسات الإسلامية، ديوان الوقف السني، ط (1)، 2009، العراق.
- 11- حامد خليل، مشكلة الهوية في الفكر العربي المعاصر، مجلة الفكر السياسي.
- 12- محمد عبدو، نبيل أبو صعب، آثار العولمة على الهوية الثقافية، مجلة الفكر السياسي.

